الخابور

لصاحب السيادة المطران اثناسيوس اغناطيوس نوري

نهر بين دجلة والفرات جاء ذكرهُ في الكتاب المقدس ، في سفر حزقيال النبي ص ١ ع ١ ؛ وقال فيهِ الشاعر :

ايا شجر الخابور ما لك مورقاً كانك لم تحزن على ابن طريف !

منبعه من راس العين (مدينة مندثرة) تبعد من دنيسير (قرح حصار) ٢٥ كيلومترًا ، من ارض مستوية . وفي ايام الشتاء والربيع ، تصبّ فيه جداول آتية من جبال كردستان ، وطور عبدين . ومصبُّهُ في الفرات ، عند البصيرة ، واسمها القديم قرقيسيا ، وقد حفظ اسمها عرب البادية حتى اليوم . وهي شرقي دير الزور ، على مسافة ٢٥ كيلومترًا. وطول الخابور ، من ينبوعه حتى مصبّه ، زهاء ٤٠٠ كيلومتر . والاراضي الواقعة على جانبيه مخصبة للغاية ، اذا اشتغلت بها الايدي العاملة .

قد رحلت ست مرات ، ذهاباً وايابًا ، بين ماردين ودير الزور ، مارًا بريفه الغربي وما زلت اتذكر ما رأيتهُ في رحلتي الاولى ، في ١٣ ايار سنة ١٨٧٣ . خرجت في اليوم المذكور من ماردين ، ترافقني اسرتي وسواها ، قاصدين دير الزور ، وعمري يومئذٍ زهاء ١٦ سنة

وفي ١٧ منهُ ، نزلت القافلة في محلة تعرف بمجاجة ، على ضفة الخابور اليمنى ، بالقرب من تلّ كبير . وهناك شرعت مع اقراني نجول حول التلّ ، فصادفنا مغارةً يشرف مدخلها على النهر ، فدخلناها وشاهدنا في صدرها تمثالين ضخمين ، طول الواحد اكثر من مترين وعلوّهُ متر ، وراسهُ يمثل الانسان ، وجسمهُ النسر ، وارجله الاسد . ويُعرف هذا التمثال في عادات الاثوريين بصنم نرغال .

وبعد ان استراحت القافلة ذاك النهار ، رحلت بنا ثاني يوم غلساً ولم اكن اعرف شيئاً يومئذٍ من التاريخ ، وما هي الاصنام ولا قيمة الماديات . . .

وبعد ان وصلت لدير الزور واقمت فيها ثلاثة اشهر ونيفاً ، اتيت مدرسة الشرفة في لبنان وتلقنت بها ما تلقنت من العلوم المطلوبة من الكاهن . وبعد سبع سنوات عدت الى دير الزور ، ومكثت فيها ثلث سنوات . ثم ذهبت الى ماردين مارًا بمجاجة المذكورة ، وما كدت انزل عن فرسي حتى اسرعت الى المغارة التي رأيتها قبل عشر سنوات لاشاهد الصنمين المذكورين آنفاً . وما اشد اسفي اذ رأيتها مكسرين تكسيرًا ولم يبق منها سوى قطع مبعثرة تكاد لا تمثل شيئاً منها . فاعتراني اشد الامتعاض . وقلت في نفسي قبح الله الجهل

ثم اخذت انعم النظر في جدران المغارة الترابية ، فشاهدت قطعاً من الفخار والعظام البالية تتخلل ما بين التراب ، دلالة على ان التل اطلال بلدة مندثرة

وسلكت في احدى رحلاتي من ينبوع الخابور ، اي من رأس العين ، حتى مصبه ، ولاحظنا التلال الكثيرة الواقعة على ضفتيه . فجزمت بانها بلاد لعبت بها ايدي الدمار . واكبر تلّ هو تل كركب بالقرب من الاحمجه ، من الجهة اليسرى .

وكانت ضفتا الخابور مأهولتين بالسكان ، معمورتين بالابنية والقصور ، من عهد الاثوريين حتى بعد الفتح الاسلامي . ورأينا سكور نواعير كثيرة لري ارضه .

وقد سعى مشكورًا عمر باشا المجري المتحد ، ثاني متصرف دير الزور في عهد الاتراك ، حتى يحضر عرب البادية ، ليفلحوا ويزرعوا تلك الاراضي . الما حال دون مساعيه عزله وتعيينه فريقاً عسكريًا لولاية حلب .

وعلى مقربة من رأس العين ، تلّ حلف الذي نقب الالمانيون قبل الحرب الكونية ، وباعلان الحرب توقفوا عن اتمام عملهم . وقد عثروا على عاديات مهمة كثيرة فيه .

فننبه البحاثين عن العاديات في دار الانتداب الفرنسي ، الى ان يحفلوا بهذا الامر الخطير ويصرفوا اليه عنايتهم . وفي يقيننا انهم سيعثرون على اشياء كثيرة تفيد التاريخ وغيره

جونيه ، لبنان ، في ٣٠ ايار سنة ١٩٢٨